المحاضرة رقم 03

براديغمات البحث العلمي

تتحدّد قيمة وأهمية أي بحث علمي بشكل كبير من خلال بنائه المنهجي وترابط أفكاره وتكاملها، لذا ينبغي التأكيد على أهمية الشق المنهجي أثناء تقييم نتائج أي عمل أكاديمي، وتطرح مسألة البحث في علوم التسيير العديد من الإشكاليات المتعلقة بالمنهج، الفرضيات، الأدوات البحثية وغيرها. إلى جانب تحديد الأطر النظرية التي يندرج البحث ضمنها. في هذا السياق، تبرز أهمية البراديغم كإطار موجه ومنظم للبحث العلمي

أولا/ تعريف البراديغم:

لغة: البراديغم (Paradigm) كلمة يعود أصلها إلى الكلمة اللاتينية (Paradigma)، والإغريقية مأخوذة من الأصل اليوناني (Paradeïgma). تتركّب كلمة (Paradeïgma) من عنصرين (Para) التي تفيد الشمول، و(deïgma) التي تعني "المثال" أو "النموذج." والبراديغم يعني "المثال" أو "النمط"، وهو أسلوب أو طريقة، طراز، نوع، صنف.

اصطلاحا: إنّ البراديغم أو النموذج العلمي الموجه، هو تلك الانجازات العلمية، والتي تُقبل في زمن معيّن، وتشكّل أساسا قويّا لطرح المشكلات العلمية ولطرائق حلّها. وهو كذلك مجموعة القيم التي يشترك الباحثون في قبولها والتمسّك بها. وتتمثّل هذه القيم في المناهج والمعايير التي تتحدّد وفقا له. لأنّ نموذجا علميا موجها واحدا، يكون منطلقا لاكتشافات عديدة. من خلال أمثلة منتقاة، وغير مكتملة أيضا، وبذلك فهو تقليد علمي خاص ومنسجم.

ثانيا/ السياق التاريخي لظهور البراديغم:

لفهم السياق التاريخي لظهور فكرة البراديغم في البحث العلمي، لا بد من الوقوف عند المدارس الابستمولوجية الأساسية التي سبقت ظهور المدرسة الثورية التي أسسها "توماس كون" (Thomas Kuhn) ، والتي مهدت لظهور مفهوم البراديغم وأهميته في البحث العلمي، والابستمولوجيا في أبسط تعريفاتها هي دراسة العلم من المنظور الفلسفي، أي دراسة نقدية للعلوم من حيث الأسس والمسلّمات، وأهميتها بالنسبة للعلم.

تقدّم المدارس الابستمولوجية الأساسية منظورات مختلفة حول الموضوع العلمي، فكل منها تزكي طريقتها في ملاحظة وتحليل وتفسير الواقع. وفيما يلي عرض مختصر لهذه المدارس وخصائصها:

- **المدرسة التجريبية:** أبرز روادها "دافيد هيوم" (David Hume) (1711-1776م)، تؤمن بفكرة أنّ المعرفة تُكتسب عن طريق الممارسة، والدليل يكون مقبولا فقط إذا اعتمد على معطيات إمبريقية قابلة للملاحظة عن طريق الحواس الإنسانية. تتبنّى أسلوب الاستدلال الاستقرائي.

- **المدرسة الوضعية:** أبرز روادها "أوغست كونت" (Auguste Comte) (1798-1857)، تقوم على التفكير الاستنباطي. وهي مدرسة تطبيق الملاحظة المنهجية المنتظمة، والنظرية

المحدّدة للوقائع القابلة للدرس. إنّ ملاحظة الظواهر تجعل استخراج القوانين التي تحكم العالم، وتسمح بتقدّمه الاجتماعي، أمرا ممكنا.

- **المدرسة التطورية:** أبرز روادها "تشارلز داروين" (Charles Darwin) (1809-1882)، فسّر التطوّر البيولوجي عن طريق ما أسماه بالانتخاب الطبيعي، وبناء على أسس التطور الثقافي والاجتماعي، تُقسّم المجتمعات إلى متخلّفة، وأخرى متقدّمة. تقوم المدرسة التطوّرية على استنباط المعرفة من المقارنة بين مراحل تطور مختلف الحضارات، وبذلك يمكن استنتاج قوانين التحوّل.

أتاحت المدارس الثلاث: التجريبية، الوضعية، والتطورية تقديم ثلاث رؤى أو مقاربات منهجية ونظرية في النظرة إلى العلم، وتزويد المشتغلين بالعلوم بمسلّمات ونظريات. في حين أنّ المدرسة الثورية مقاربة حديثة للابستمولوجيا، كما أنّها لا تعمل على التحقّق من صلاحية علم بعينه، بل على نقد تاريخ العلوم. تعطي هذه المقاربة التاريخية نظرة جديدة حول تطور المعرفة العلمية عبر القرون.

وفق "كون"، تمرّ العلوم خلال مراحل تطورها بفترات أزمات، هذه الأزمات تولّد "ثورات علمية"، والتي بدورها تكرس مجموعة جديدة من النظريات عن طريق الغليان الفكري. هذه الثورات تؤدي إلى ما يسميه "كون": البراديغمات، والبراديغم هو نظرة سوية ومشروعة للعالم. يحدّد هذا المفهوم المشترك ترتيب الاهتمامات والمسائل والنظريات والمناهج الخاصة بكل علم من العلوم.

فمثلا، تمثّل أعمال "كوبرنيكس" (Copernics) ، "نيوتن" (Newton) ، و"أينشتاين" (Einstein) ثورات علمية كبرى في تاريخ العلوم الفيزيائية. كل واحدة من هذه الثورات، تستلزم إلغاء نظرية علمية كانت سائدة ومكرّسة في وقتها، واستبدالها بنظرية أخرى معارضة لها. ويؤدّي هذا الاستبدال إلى تحوّل في المشكلات التي تشغل بال الباحثين العلميين. ومن هذه المشكلات الجديدة، تنبع مقاييس، من خلالها، يقرّر العلماء ما يمكن اعتباره مشكلة مقبولة، أو ما يمكن اعتباره حلا مشروعا. تُغيّر هذه الثورات العلم إلى درجة تغيير النظرة إلى العالم الذي تجري فيه هذه الأعمال العلمية.

ثالثا/ الأهمية المنهجية لاستخدام البراديغم في البحوث العلمية:

إنّ البراديغم يقدّم الأسئلة والحلول في نفس الوقت، وهذا يعني أنّ العلماء يشتغلون تحت مظلّته التي تقتضي جعل النظرية والتجربة في توافق محدّد سلفا، بفضل الجهاز المفهومي المتمثّل أساسا في المسلّمات والإجراءات التي ينخرط في استيعابها وكشفها العالِم أثناء ممارسته لنشاطه العلمي، فالعالِم لا يدرك العالَم إلا من خلال البراديغم. لهذا يعمل هذا الأخير على إقصاء كل الوقائع التي لا تنسجم مع طبيعته. من ثمّة يتخلّى عنها الباحث. ولا يهتم إلّا بما يسمح به البراديغم. يقول "كون": «عادة يكون البراديغم المطوّر من أجل مجموعة من الظواهر غامضا في تطبيقه على ظواهر قريبة جدا. عند ذلك تكون التجارب ضرورية للاختيار بين الطرائق البديلة لتطبيق الراديغم في المجال موضوع الاهتمام».

ينشئ البراديغم قياسا أو تسوية جديدة في علم ما، ذلك بأن يضيف إليه العناصر المعترف بها في البحث العلمي. وتتمثل هذه العناصر أساسا في: قانون، نظرية، وأدوات تجريبية، وهي تتهيكل مشكلة نماذج يُحتذى بها لتتولّد عنها تقاليد خاصة ومنسجمة من البحث العلمي. إنّ البراديغم إنجاز قادر على أن يكون دليلا لأبحاث المجموعة برمّتها.

رابعا/ البراديغمات المستعملة في علوم التسيير :

يذكر Raymond-Alain Thietart في كتابه Méthodes de recherches en management الصادر سنة 1999، أنّ الأبحاث العلمية في علوم التسيير تندرج ضمن البراديغمات التالية حصرا :

1- البراديغم الوضعي:

يتيح هذا البراديغم إمكانية الوصول إلى الحقيقة من خلال شرح (explication) هذه الحقيقة. من بين خصائصه:

- استقلالية الباحث (sujet) عن موضوع البحث (objet) لأن الحقيقة موجودة في نفسها وما على الباحث إلا شرحها.
- حيادية التحليل كأحد شروط إنتاج العلم الموضوعي.
- فرضياته واقعية (مطلقة) وكذلك محددة(Déterministe).
- أولوية المعطيات الكمّية والسّببية المادية عبر الاعتماد على مسارات كمية Démarche quantitative
- قيمة المعرفة العلمية تتحدد بمدى قابليتها للتحقق، التأكد وكذلك الرفض أو الدحض (حسب مبدأ Karl Popper)، بالإضافة لإمكانية التوقع prédictibilité كمعيار لعلمية العلم scientificité.

2- البراديغم التفسيري:

يرى أتباع هذا البراديغم أن سيرورة إنتاج المعرفة تمر بفهم المعنى الذي يقدمه الفاعلون للواقع". ويتميز هذا التوجه بما يلي:

- فهم الواقع يتم عن طريق التفسيرات التي يقدمها الفاعلون فيه.
- عملية إنتاج المعرفة تمر عبر فهم المعنى الذي يقدمه الأفراد للواقع.
- ليس هناك استقلالية بين الباحث وموضوع البحث (الذاتية).
- فرضياته نسبية.
- أسبقية المعطيات الكيفية على الكمّية.
- هناك مسلمة postulat قابلية التغيير variabilité الظرفي للعلاقة بين السلوكيات والمعاني، أي وجود تبعية و ارتباط بين الباحث والظاهرة المدروسة sujet/objet.

3- البراديغم البنائي:

وهو يشترك مع البراديغم التفسيري في محاولة الفهم لكنه يختلف معه في انه يرى أن إجراء الفهم يساهم في بناء واقع الفاعلين المدروسين. فالواقع يبنى عن طريق المعرفة لاعن ما يقدمه ويفهمه العالَم(Le monde)" . من خصائص هذا البراديغم:

- البنائية الجذرية تتكلم عن اختراع الواقع Invention .
- المعرفة تتشكل بتداخل الباحث (sujet) مع موضوع البحث (objet) لأن العالَم مشكل من عناصر شخصية، اجتماعية، ثقافية...الخ. والمعرفة تنتج من هذا التعقيد عن طريق المعاني المعطاة للواقع.
- الفرضية تكون عمديه (قصديه) والمعرفة المتحصل عليها تكون ذاتية وظرفية.
- السيطرة على البحث بالطرق الكيفية.

إن مختلف الأسئلة الابستيمولوجية الواجب الإجابة عنها قبل الخوض في غمار البحث العلمي مجملة في الجدول أدناه، مع تبيان موقف كل براديغم منها.

جدول رقم (01) :التموضع الابستمولوجي للبراديغمات الثلاث.

النماذج المعرفة	البراديغم الوضعي	البراديغم التفسيري	البراديغم البنائي
ما هو منشأ المعرفة؟	**فرضية واقعية** المعرفة لها منشأ خاص Essence propre	**فرضية نسبية** **لا يمكن الوصول إلى منشأ المعرفة(براديغم تفسيري، بنائي معتدل)** **ليس هناك منشأ للمعرفة (بنائي جذري)**	
ما طبيعة الواقع؟	**استقلالية الباحث عن الموضوع** **objet/sujet**	**وجود تبعية بين الباحث والموضوع**	
كيف تنشأ المعرفة؟ **طرق المعرفة العلمية**	**<u>الاكتشاف</u>** البحث يكون مصاغا بطريقة : لأي سبب..؟ **<u>الوضع المفضل: الشرح</u>**	**<u>التفسير</u>** صياغة أسئلة البحث بطريقة: من أجل أي؟ **<u>الوضع المفضل: الفهم</u>**	**<u>البناء</u>** صياغة أسئلة البحث : لأي غاية؟ **<u>الوضع المفضل: البناء</u>**
معايير قبول المعرفة	**-قابلية التحقق Vérifiabilité** **-قابليةالتأكيدConfirmabilité** **-قابلية الرفض K. Popper** **Réfutabilité**	**-Idiographie** **-Empathie** (تقمص) **(révélatrice)** **تكشف التجربة المعاشة من طرف الباحث**	**-ملائمة Adéquation** **- قابلية التعلم Enseignabilité**

يبين هذا الجدول مختلف الروابط بين البراديغمات المختارة و مسالك البحث المترتبة عنها. فاختيار براديغم ما يترتب عليه تبني عدد من الخيارات فيما يتعلق بمنهج البحث كمي أو كيفي، أدوات جمع البيانات، اتجاه البحث استقرائي أو استنباطي...

للإشارة فإن كل من يعمل ضمن هذا البراديغم أو ذاك بشكل منهجي، سيساهم في إنتاج أو تطوير العلم العادي، والخروج عن هاته البراديغمات بالمعنى الذي شرحه Khun هو الذي ينتج علم الثورة. وتجدر الإشارة إلى اختلاف توجهات الباحثين بين من يرى إمكانية تبني أكثر من براديغم أثناء إجراء البحث العلمي، وبين من يؤيد فكرة التقيد ببراديغم محدد.

إن البحث العلمي في علوم التسيير ليس "عملية آلية" بسيطة تقوم دوما على اختيار متغيرين اثنين تحديدا، استخراج عدد من الأبعاد، الربط بين هاته الأبعاد، صياغة الاستبيان، توزيعه وإفراغه في برنامج SPSS، الحصول على أرقام وأخيرا وبكل سهولة إطلاق تعميمات على إشكاليات هي أعقد مما يتصورها من بحث فيها. فهذا الأسلوب يشعر الباحث بطمأنينة لأن الأرقام تعطيه نوعا من "الحصانة" للنتائج المقدمة، وهي في الواقع أبعد ما يكون عن الواقع.

إن تحديد وتبرير البراديغم المنتهج في البحث العلمي في علوم التسيير يعد الخطوة الأساسية قبل الغوص في أعماق البحث، لأنه سيسهل على الباحث عملية تصوّر إشكاليته، ومن ثمّ يحدد طريقه لفهمها إما بشرحها أو بتفسيرها أو ببنائها، وتتضح له معالم بحثه من حيث كونه كميا أو كيفيا أو مزيجا بينهما، هل سيعتمد على الاستقراء أو الاستنتاج أو الإبعاد، ما نوع البيانات التي سيجمعها أولية أو ثانوية؟ هل سيلجأ للاستبيان أو المقابلة أو الملاحظة أو الجماعات المركزة أو يكتفي بالبيانات الداخلية للمؤسسة أو يزاوجها بالبيانات الخارجية؟ باختصار ستكون منهجية بحثه متجانسة ومتآزرة منذ اختيار البراديغم إلى غاية تحليل وتفسير النتائج وتقديم الاقتراحات والتوصيات.

المراجع المعتمدة بشكل أساسي في عنصر البراديغمات المستعملة في علوم التسيير ضمن هذه المحاضرة:

- فاتح دبلة، الأسس الفكرية والابستمولوجية لمنهجية البحث العلمي في علوم التسيير، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد23، نوفمبر 2011، الرابط الإلكتروني:
https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/41/11/2/49518
- عبد السميع روينة، حسام الدين غضبان، براديغمات البحث العلمي في علوم التسيير، الملتقى الوطني حول منهجية إعداد البحوث العلمية، يومي 21 و22 نوفمبر 2018، الرابط الإلكتروني:

https://www.researchgate.net/publication/331074825_bradyghmat_albhth_allmy_fy_lwm_altsyyr